المدرسة الكلية والعلم العملي

لما جاء الدكتور اليوت رئيس مدرسة هارفرد الجامعة الى هذا القطر منذ بضع سنوات ورأى مدارس الحكومة المصرية اقترح عليهِ ناظر المعارف ووكيلها ان يكتب تقريراً مسهباً عمَّا يراهُ لازماً لهذه المدارس فكتب التقرير المطلوب وبعث الينا بنسخة منهُ فترجمناهُ ونشرناهُ في المقتطف . واهمُّ ما فيهِ ان لا بدَّ من قرن العلم بالعمل في مدارس الحكومة العلمية والاَّ كان العلم عقيماً . ويسرُّنا ان مدرسة قصر العيني الطبية ادركت هذا الامر وقد شاهدنا تلامذتها بالامس يشتغلون بالتحليل الكيماوي والبحث الميكروسكوبي كما ينتظر منهم

ومن المدارس التي ادركت ذلك قبل غيرها في ديار المشرق المدرسة الكلية الاميركية في بيروت فان اساتذتها وتلامذتها حاولوا قرن العلم بالعمل من حين نشأتها ولا يزالون جارين في هذا المضمار

لما دعي كاتب هذه السطور لتدريس الفلسفة الطبيعية في تلك المدرسة قال لهُ رئيسها أتدري ما ذكرني بك حينما احتجنا الى من يدرّس الطبيعيات فقال لا فقال الرئيس هو انك لما كنتَ تتعلم هذا العلم ووصلت في درسك الى مطحنة باركر في فرع السائلات صنعت مطحنة حسبما هو مشرح في الكتاب فقلت في نفسي ان تلميذاً يقرن العلم بالعمل من تلقاء نفسهِ لحريٌّ بان يُندب الى تعليمهِ وبقي ذلك في ذاكرتي الى الآن

ومثل ذلك يُرغب تلامذة المدرسة الكلية في قرن العلم بالعمل لكي ترسخ قواعد العلم في نفوسهم ففي القسم العلمي يمرّنون على الانشاء والخطابة ويحثون على البحث والتنقيب في كتب العلم والفلسفة ولذلك يكثر اختلافهم الى مكتبة المدرسة ومطالعة ما فيها من الكتب العلمية والادبية حتى اذا وصلوا الى العلوم التي تقتضي المشاهدة كعلم النبات وعلم الحيوان جعلوا يطوفون في الحقول والمزارع يقتلعون النباتات ويجففونها ويبوّبونها حسب انواعها وعيالها ويضربون في الفيافي ويخوضون لجج البحار يجمعون الحشرات والدبابات ويشرحونها ليروا تركيب ابدانها . ولولا خطأٌ ارتكبهُ اصحاب هذه المدرسة يوم قرَّ قرارهم على ان لا يكون احد من اساتذتها من الوطنيين لانقطع بعض الوطنيين الآن الى الاشتغال بالعلم وحققوا وكشفوا كثيراً من القضايا العلمية التي تخلد اسمهم واسم مدرستهم في تاريخ العلوم الطبيعية . وان قيل لماذا لم يفعل اساتذتها الاميركيون ذلك قلنا ان هؤلاء لا يقيمون فيها الاَّ سنين قليلة ثم يتركونها

غالباً قبلما تقوى رغبتهم في العلم و يتمكنون من البحث العلمي واما الذين اقاموا السنين الطوال فيها كالمرحوم الدكتور فان ديك والدكتور بوست والدكتور لويس والدكتور بورتر فان كلاً منهم اشتغل بفرع او اكثر وجمع وحقّق ما تفتخر به كل مدرسة كلية . وكان اكثر اشتغال الاول بالفلك والمتيورولوجيا والثاني بالجراحة والنبات والثالث بالجيولوجيا والرابع بالاركيولوجيا وجمعوا المجاميع الكبيرة الشاهدة لهم بعلو الهمّة وطول الباع . وقد توفي الاول واستعفى الثالث و بلغنا ان خليفتيهما سارا في خطتيهما ووسّعا نطاق مباحثهما ومجاميعهما . ومَن كان في ريب من ذلك فليشاهد معارض المدرسة الكلية او فليفتح كتاباً علمياً مثل كتاب نبات سورية وفلسطين فانهُ يجد فيهِ اسم الدكتور بوست وارداً مراراً كثيرة بجانب النباتات التي سبق غيرهُ الى اكتشافها وشرحها او ليفتح الكتب العلمية المختلفة التي ألّفها اساتذة المدرسة الكلية وتلامذتها والمجلات العلمية والادبية التي انشأوها

واكثر العلوم اعتماداً على العمل علم الطب ولذلك تجد اساتذتهُ وتلامذتهُ يشتغلون بتطبيق قواعدهِ على العمل يومياً في غرف المدرسة وفي المستشفى الالماني القريب منها . ترى في الصورة التي صدّرنا بها هذا الجزء رسم بناء القسم الطبي حيث تدرّس العلوم الطبية وهو بناء جميل متين قائم على اكمة مطلقة الهواء تعرّش اللبلاب على وجههِ الغربي فزاد منظرهُ مهابةً فيهِ مشهدان وسيعان في كلٍّ منهما مقاعد في شكل دوائر متراكزة يعلو بعضها بعضاً كالمشاهد الرومانية القديمة يجتمع التلامذة فيهما لاستماع الخطب ومشاهدة العمليات والامتحان في الدروس . وفي غرفهِ المتخلفة معمل الزولوجيا والبكتيريولوجيا ومجاميع التشريح والجراحة والباثولوجيا والزولوجيا والمترالوجيا . وقد رسمنا في الشكل الاوسط من الصورة غرفة المجموع الجراحي وما فيهِ من الحميٰ والعظام ونحوها مما استخرجهُ استاذ الجراحة في العمليات الجراحية . وفي الشكل الاسفل المعمل الزولوجي حيث يدرس التلامذة ابنية الحيوانات واوصافها بالنظر فيها و بتشريحها بايديهم . وهذا هو الدرس المفيد الذي يرسخ في الذهن و ينبه قوى العقل ويقويها ولا سيما قوّتي الانتباه والاستدلال . هذه خير صورة شاهدناها لطلبة العلم في مدرسة من المدارس الجامعة ولم نعنَ بنشرها و بكتابة هذا الشرح الوجيز لكي نمدح المدرسة الكلية بل لكي نحث اصحاب المدارس الاخرى في مصر والشام على ايجاد الوسائل التي يقترن بها العلم بالعمل في مدارسهم حتى ترسخ الحقائق العلمية في اذهان الطلبة وتنمو فيهم ملكة البحث والاستقصاء وطلب الادلة والوقوف عند الحقائق و بغير ذلك لا يصير في الشرق الرجال الذين يستعزُّ بهم و يجاري امم المغرب